الأهرام

المصدر: الاهرام العربى

التاريخ : ٣١ اغسطس ٢٠٠٢

ليس دفاعا عن حكومة البشير

10 أسئلة جارحة قبل ميلاد دولة جنوب السودان

لماذا يبدو «الجنوب» مصطلحا يجاوز حدود الجغرافيا؟! فالجنوب يصبح أسطورة وعقدة ومأساة حين تتطلع إلى الوراء أبصار أبناء الشمال. ويصير هوية مستقلة واستثناء ثقافيا حين يحدق أبناؤه بالنظر فى وجود الشماليين.

التاريخ يشهد على قصص جنوبية وهبت فيها الجغرافيا بعدا أسطوريا للأقاليم الجنوبية على خريطة العالم. فالجنوب فى الولايات المتحدة حمل كراهية بالغة للشمال. وسعى للانفصال حتى قمعه الشماليون فى حرب طاحنة، وأهل الشمال فى أوروبا ينظرون إلى الأقطار الجنوبية باعتبارها الأعظم فوضى، والأكثر إجراما. فالمافيا تستقر فى إيطاليا. والأزمات السياسية والاقتصادية تستوطن اليونان، وشعارات الانفصال والتمرد تتعاظم فى أسبانيا، حيث إقليم الباسك ومنظمة إيتا الانفصالية.

خالد صلاح

وأوروبا بأسرها بموقعها الشمالى على خريطة الأرض تعتبر أن الخطر على أمنها ورفاهيتها يأتى من قوارب الهجرة الجنوبية من بلاد ما وراء المتوسط، وأشهر الحروب العربية فى العقد الأخير من القرن العشرين كانت حرب الوحدة التى شنتها السلطة المركزية فى اليمن الشمالى على الانفصاليين فى الجنوب، فيما تبقى الصحراء جنوب المملكة المغربية عنوانا لصراع انفصالى لجبهة البوليساريو حتى حين اجتمعت بلدان العالم الثالث لتنسيق مواقفها السياسية تجاه أغنياء وأقوياء الأرض، كانت مجموعة الـ 77 تختار لنفسها مصطلح بلدان الجنوب، رغم أن بعضها يحتل مواقع شمالية بالنظر إلى موقعها الجغرافى على خريطة الأرض بالمقارنة مع بلدان جنوبية تنتمى واقعيا إلى الشمال كالحال بين أستراليا «شمالية التقسيم غربية الثقافة» مع بلدان فى شمالها ضمن الحزام الآسيوى.

جنوب السودان لا ينحرف عن هذه الأسطورة إلا فيما يتمتع به من خصوصيات الحالة السياسية السودانية، وما اكتسى به من غموض روتينى للواقع السياسى العربى عززته الدعاية الأيديولوجية لحكومات الخرطوم المتعاقبة التى استثمرت الحرب الأهلية فى استقطاب المعونات العربية فى مواجهة ما كانت تسميه المؤامرة المسيحية وجماعات التبشير وخطط تقطيع أوصال العالم العربى.

حكومات الخرطوم فى الشمال هرولت وراء الشعارات العروبية والدينية فى مواجهتها مع أبناء الجنوب فى وقت لم تكلف مراكز صنع القرار فى هذه الحكومات نفسها بالتفكير فى حلول حقيقية سياسية وتنموية تعالج جروح أبناء الجنوب، وتحاصر الغضب والسخط على الحكومة المركزية، وكانت النتيجة أن هذا الغضب غازل الهوى الجنوبى وتحالف مع أسطورة الجغرافيا بين الشمال والجنوب لتتوسع الحرب الأهلية ويقف السودان على شفا حفرة من التقسيم، ويوشك العالم على استقبال مولود جنوبى جديد هو «جمهورية جنوب السودان» المستقلة.

الواقع هنا ينذر بأن عواصم العرب مندفعة نحو خطيئة

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

أخرى حين تسول الدبلوماسية العربية لنفسها استباحة إطلاق الشعارات المؤامرتية على المشهد قبل الأخير فى مأساة جنوب السودان، هذا المشهد الذى تجرى وقائعه فى ماشاكوس الكينية عبر الجولة الثانية من المفاوضات بين الخرطوم والجبهة الشعبية لتحرير السودان، فعواصم العرب اختزلت المشهد فى الضغوط الأمريكية ولعبة النفط الواعد والأصابع الصهيونية فى دول الجوار الإفريقى، وإذا اعتبرنا هذه الخطيئة تتناغم مع الذهنية العربية التى تطمئن حين تتصور «المؤامرة» وكأنها ضحية غير مسئولة عن الخطأ، فيما ترفض الاعتراف بضعفها وعدم فاعليتها، فإنه فى الوقت نفسه تبدو خطورة الارتكان إلى المؤامرة والضغوط الأمريكية وحدها فيما يتعلق بسيناريو حق تقرير المصير، إذ إن ما تشهده الخرطوم قد تشهده بلدان عربية أخرى ترقد على بحيرات من الفتن النائمة والخلافات العرقية والدينية والمذهبية من المنامة حتى الدار البيضاء لا نستثنى من ذلك أحدا.

وما ينبغى أن يلفت انتباه هذه العواصم العربية اليوم ويستقطب جهود السياسة والدبلوماسية ليس إعادة إنتاج دروس المؤامرة أو المزايدة بدعاية أطلقتها رغبة أو رهبة حكومة السودان الحالية عن العروبة والإسلام والأمن القومى العربى، لكن الأهم هو فهم ما جرى وقراءة أسبابه بحكمة ووعى فى ضوء ما تهبه الجغرافيا من طابع أسطورى للجنوب، وفى ضوء ما يهبه الواقع العربى من جهل أسطورى وظلم أسطورى ثم اتفاقات مفاجئة ذات طابع أسطورى أيضا.

المشهد اليوم يحمل حفنة من الأسئلة تجدر الإجابة عليها بصراحة مطلقة ويتحرر كامل من قيود كلاسيكيات نظرية المؤامرة بمعاييرها العربية.

■■ السؤال الأول: ما الذى أفضى إلى اتفاق ماشاكوس وما الذى أجبر حكومة الخرطوم إلى قبول حق تقرير المصير الذى قاتلت فى رفضه لأكثر من عشرين عاما؟

الإجابة الجاهزة هى الضغوط الأمريكية على حكومة الخرطوم طمعا فى كعكة النفط الواعد فى السودان، وقد تكون هذه الضغوط وأسبابها حقيقية، لكنها ليست السبب الأوحد أو الرئيسى، فهناك على الأرض فى جنوب السودان أمر واقع كان يوشك أ ن يؤسس للدولة الانفصالية قسرا، ليس لأن واشنطن تريد ذلك، وإلا لتركت الخيار القسرى حتى نهايته، لكن لأن حكومة السودان لم تعد تملك من القوة ما يمكنها من حسم الحرب بالآلة العسكرية، وفى الجنوب قائد منتصر هو جون جارانج تدعمه شرعيته الثورية بين أتباعه فيما الشمال يعيش تحت قيادة حكومة أفرزها انقلاب عسكرى، وحافظت على بقائها باللعب على نقاط الضعف لدى خصومها السياسيين فى الداخل والخارج.

■■ السؤال الثانى: هل كان من المحتمل الوصول إلى صياغة حكومة وطنية تستطيع التفاوض مع الجنوبيين على أجندة مختلفة تستبعد خيارات الانفصال؟

الإجابة لا، إذ إن كل القوى المنتمية إلى التجمع السودانى المعارض راهنت على ورقة جارانج فى العمل العسكرى ضد البشير، وراهنت على هذه الورقة أيضا فى اكتساب شرعيتها كمعارضة مؤهلة للحكم أمام القوى الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، بل انجرفت أحزاب الشمال إلى استخدام نفس الاتهامات التى يكيلها الجنوب لحكومة الخرطوم كالعنصرية وتجارة الرقيق والاضطهاد والأصولية المتطرفة، فأحزاب الشمال نفسها هوت بين أحضان جارانج وظنت أنها تلعب ورقته فى حين كانت كل تلك الأحزاب بتجمعها الخاشد ورقة فى يد جارانج لتأكيد أنه لا ■ البشير يسعى للانفصال كغاية أساسية لحركته الشعبية.

■■ السؤال الثالث: هل كان العرب قادرين على مساعدة السودان وتوفير بيئة حقيقية لحل عربى فاعل؟

الإجابة لا، إذ تراجعت المعونات المالية التى كانت الخرطوم تحصل عليها من بعض البلدان العربية فى الخليج، فيما استخدمت الأموال التى تلقتها الخرطوم بالفعل فى شراء الأسلحة وتعزيز الإمكانات الهجومية للجيش السودانى فى مواجهة جارانج، وفى نفس الوقت لم تكن الوساطات والمبادرات العربية فى الأزمة تمتلك مقومات فرض حل حقيقى على الطرفين، إذ أن الوساطة وطرح المبادرات لا يعنى فقط اقتراح مشروع للتباحث حوله بقدر ما يعنى امتلاك أوراق ضغط حقيقية تمكن صاحب المبادرة من توجيه المباحثات نحو نقاط حل وسط بين الجانبين، وهو ما لم يتوافر للإرادة العربية أو للمبادرة المصرية – الليبية بينما توافر لمبادرة الإيجاد بدعم أمريكى.

فضلا عن أن العرب انطلقوا فى رؤيتهم للحل وفى نظرتهم لمأساة الجنوب من وجهة نظر دعم الحكومة المركزية دون فهم حقيقى لعمق المأساة لهؤلاء الجنوبيين ودون إدراك لما أدته سنوات الديكتاتورية وغياب الديمقراطية والمزايدة بأوراق الدين والهوية الإسلامية على تعميق الفجوة بين الجنوب والشمال من جهة، وبين الجنوب والعرب من جهة أخرى.

■■ السؤال الرابع: هل كان الدور الأمريكى فى الوصول إلى الحل يعمل جملة وتفصيلا ضد حكومة الخرطوم وبانحياز إلى جون جارانج وحركته؟

الإجابة لا، إذ إن مختلف العواصم العربية كانت تفتح أبوابها لجارانج باعتباره طرفا رئيسيا فى الصراع، وصاحب قوة لا يستهان بها بين الجنوبيين والأحزاب الشمالية على حد سواء، كما أن المصلحة الأمريكية فى النفط السودانى تعتمد على التعاون مع حكومة البشير بنفس القدر الذى تحتاج فيه إلى الاستقرار بين الحكومة والمتمردين حفاظا على آبار النفط من نيران الحرب الأهلية، ولم تخرج الأطروحات الأمريكية التى حملها المبعوث جون دانفورث إلى عواصم المنطقة وعلى رأسها الخرطوم عما كانت تطرحه أحزاب تجمع المعارضة من الدعوة إلى الديمقراطية وفصل الدين عن الدولة والمساواة بين الجنوبيين والشماليين أمام القانون، فى الحقوق والواجبات، وفى تولى الوظائف العامة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

■■ السؤال الخامس: هل كانت السلطة السودانية قادرة على تفكيك القوة المتمردة والرهان على الخلافات بين القبائل والفصائل العسكرية؟

الإجابة إنها حاولت، لكنها فشلت باتفاق مع رياك مشار وأخيرا لام أكول وغيرهم من القيادات الجنوبية التى تولت وظائف قيادية داخل الحكومة، ثم انهارت تلك الصياغات بعد أن أكدت تلك القيادات الجنوبية أن الشماليين كانوا يعاملونهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ولم تمثل هذه الخطوة تغيرا حقيقيا فى موقف الحكومة باتجاه أبناء الجنوب، ولم يخرج عن كونه محاولة فاشلة لتبييض صفحة الخرطوم المتهمة بالديكتاتورية والاضطهاد والعنصرية والعدوان على مبادىء حقوق الإنسان.

● السؤال السادس: لماذا قبلت حكومة البشير تنامى الدور الأمريكى فى الأزمة واستجابت لضغوط الساعات الأخيرة التى أفضت إلى هذا الاتفاق؟

الإجابة: من ذا الذى لا يقبل الدور الأمريكى بل ويستجديه على قسوته وظلمه أحيانا فى الشرق الأوسط، فما الأوراق التى كان يمكن للخرطوم أن تراهن عليها فى المقاومة؟ وهل يشكل البعد العربى حماية كافية فى وقت فشلت فيه توسلات العرب أن تضع جسرا للنجاة لعرفات خلال حصاره فى رام الله. وماذا تفعل الخرطوم إذا كانت ليبيا مثلا وهى إحدى دولتى المبادرة لم تعد تجد سبيلا لاستقرارها الإقليمى إلا بعد تسليم مواطنيها للمحاكمة والمبادرة بعرض دفع تعويضات تبلغ 2.7 مليار دولار لأسر الضحايا؟

■■ السؤال السابع: هل النص على حق تقرير المصير يمثل ظلما لحكومة الخرطوم وقع رغما عنها؟

الحقيقة أن هذا الاقتراح ثبتته بعض أحزاب المعارضة الشمالية، وتفاوض حوله الترابى وجارانج بعد الطلاق بين الترابى والبشير، صحيح أنه اختيار جارح وصادم، لكنه يمثل اختيارا واقعيا فى ظرف انعدمت فيه الحلول الأخرى، فاليمن الشمالى حسم الانفصال بالقوة العسكرية، ولو كانت الخرطوم تمتلك القوة لأنهت الحرب لصالحها، والعرب ليسوا على استعداد لمثل هذا النوع من المغامرات بتقديم خدمات عسكرية لحسم الحروب الانفصالية من هذا النوع.

ثم إن الشمال يرتاح أيضا إلى وقف الحرب بكلفتها الباهظة التى حرمت أبناءالسودان من تنمية حتمية والقتهم فى أتون الفقر فيما النفط يتفجر أنهارا تحت أقدامهم.

■■ السؤال الثامن: كيف يمكن مواجهة المخاطر التى تهدد الأمن القومى المصرى والعربى حال انفصال الجنوب؟

الإجابة، أى خطر على أى أمن؟ فالقسم الأعظم من مياه النيل لا يأتى من مناطق جنوب السودان، كما أن حوض هذا النهر يتميز بخضوعه لاتفاقات دولية موثقة بين البلدان التسع المشاطئة للنهر ومنابعه فى هضبة البحيرات أو فى إثيوبيا، حيث يرفده النيل الأزرق، ومن هنا فإن تصوير وقوع مغامرة من جارانج لا يتلاءم مع الوضع الإقليمى، وأيا كانت المصالح الأمريكية التى ترعى حق تقرير المصير، فإن مصالح أعظم تربط واشنطن بالقاهرة والخرطوم تحول دون مغامرات محتملة أو مؤامرات مفترضة ومتخيلة.

■■ السؤال التاسع: هل يمكن أن تنتهى الفترة الانتقالية - 6 سنوات - ثم يصوت الجنوبيون على الانفصال ولا تنجح حكومة الخرطوم فى تحقيق الوحدة؟

الراجح أن الانفصال هو النتيجة الحتمية، إذ إن ما جرى عبر عشرين عاما من الحرب قد لا تقوى الحكومة الحالية على تجاوزه فى ست سنوات، خاصة أن غريزة القطر المستقل راسخة لدى قيادات الجبهة الشعبية وجيشها فى الجنوب.

■■ السؤال العاشر: ماذا تفعل مصر والعالم والعربى؟

الإجابة: التخطيط فورا لعلاقات أخوية مع دولة جنوب السودان.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية